

المكتبات في الحضارة الإسلامية: أنواعها، تنظيمها، دورها ومساهمتها في التطوير والتحضر للعالم العربي الإسلامي وتأثيرها على مكتبات الغرب المسيحي.

Libraries in Islamic Civilization: their types, organization, role and contribution to the development and urbanization of the Arab-Islamic world and their impact on the libraries of the Christian West.

رحايلي محمد¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

Rehailim@yahoo.com

تاريخ الوصول 2022/01/20 القبول 2202/03/16 النشر على الخط 2022/04/15

Received 20/01/2022 Accepted 16/03/2022 Published online 15/04/2022

ملخص:

عرف عن المكتبات التي أنشأت في الحضارة العربية الإسلامية، طيلة الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى غاية القرن الثالث عشر الميلاديين. بأنها من أعظم المكتبات عبر التاريخ. ويرجع ذلك إلى الاهتمام بالعلم والقراءة، من الحكام أو العامة. نتيجة للاتجاه الذي عرفه المجتمع الإسلامي آنذاك من حث على طلب العلم والتدبر والتفكير في مختلف مجالات الحياة. فالحضارة الإسلامية هي علمية بامتياز لذا تفتن من لهم المسؤولية في إدارة الشؤون العامة للخلافة الإسلامية المترامية الأطراف، إلى ضرورة وجود مؤسسات ومرافق تعنى بتمكين أي فرد من تطوير قدراته من خلال الاطلاع والتثقيف. فشيدوا المكتبات الكبرى كدار الحكمة ببغداد عاصمة العباسيين ومثيلاتها بالمدن الكبرى والمهمة. ومما ميز حركة المكتبات في تلك الفترة هو الضخامة، والتنوع حيث عرف العالم أنواعا جديدة. فهناك مكتبات الجوامع والمساجد، المكتبات العامة، المكتبات المدرسية، حتى مكتبات المشايخ. كما تطور دور المكتبات إلى مؤسسات تعليمية و تكوينية ومكان لنسخ الكتب، وارتقت الأعمال الفنية وخدمية من فهرسة وتصنيف وإعارة. ونظمت الوظائف والمشرفين عليها كما شيدت بنايات خاصة بها كما هو الحال اليوم. وتفوقت على مثيلاتها في الغرب المسيحي والذي أشاد به مؤرخون ورحالة ومستشرقون.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية - دار الحكمة - مكتبات الجوامع والمساجد.

Abstract :

Known for the libraries that were established in the Arab and Islamic civilization, during the period from the ninth century until the thirteenth century AD. It is one of the greatest libraries in history.. As a result of the trend that the Islamic community knew at the time of urging people to seek knowledge. so those who are responsible for managing the general affairs of the vast Islamic Caliphate realize the necessity of having institutions and facilities concerned with enabling any individual to develop his capabilities through knowledge and education. They built major libraries, such as the House of Wisdom in Baghdad, the capital of the Abbasids, and similar ones in major and important cities. What distinguished the libraries at that time was the diversity. There were mosques libraries, public libraries, school libraries, and even hospital libraries. The role of libraries has also developed into educational and training institutions and a place for copying books, and service works have risen from indexing, classification and lending. She organized the jobs and their supervisors. It outperformed its counterparts in the Christian West, which was praised by historians, travelers and orientalis.

Keywords: Islamic civilization - Dar al-Hikma - mosques libraries

مقدمة:

عرف عن المكتبات في العالم منذ نشأتها. أنها أماكن لحفظ الكتب والمصنفات الفكرية والعلمية ، وذلك بغرض عرضها على القراء والمستفيدين والمهتمين. لقد اهتمت الحضارات القديمة بهذه المؤسسات وأعطتها أهمية بالغة، بل تسابق الملوك والأباطرة والحكام في بناء وتشيد مكتبات بقيت أسماؤها خالدة إلى يومنا هذا، وكما أظهرت الدراسات التاريخية حول المكتبات، أن هذه الأخيرة ارتبطت بالتطور والازدهار في القديم. فمكتبة نينوى في حضارة ما بين النهرين الذي أسسها الملك آشور بانيبال والتي كانت داراً لحفظ السجلات والمحفوظات؛ كما اهتم المصريون القدماء بهذه المؤسسات وشيدوا مكتبات كثيرة، أشهرها: مكتبة رمسيس واعتمدوا على نبات البردي كمادة استعملت في الكتابة. واجتهد قدماء اليونان في إنشاء مكتبات أكثر حداثة، حيث أسس بطليموس سوتر - أول ملوك أسرة الإسكندر الأكبر - مكتبة الإسكندرية في مصر، حيث يعد ذلك منعرجاً جديداً لتاريخ تأسيس المكتبات؛ أي تطور الأعمال الفنية من تصنيف وترتيب وخدمات. وظهر أشهر عمل بيبليوغرافي في التاريخ وهي عبارة عن قائمة بمحتويات المكتبة من طرف "كليماخوس" * كما عرف العالم بعد فراغ طويل منذ اندثار هذه المكتبات الكبرى، ظهور مكتبات جديدة متنوعة وذات توجهات أكثر عملية وفعالية إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. في الفترة التي امتدت من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلاديين. وهو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وللبنية جمعها، التي شملها وهج التقدم والرقي في مختلف المجالات الحياتية. وكانت للمكتبات الانطلاقة الجديدة المميزة من حيث التنوع والانتشار وتوسيع الخدمات، وكان ذلك نتاجاً للبيئة التي تواجدها فيها المتسمة بالعلم والقراءة وحب طلب العلم الذي بنيت عليه الحضارة الإسلامية. وظهرت خلال هذه المرحلة مكتبات عظيمة لا تقل شأنًا عن مكتبات العالم القديم الذي سبق ذكرها، وتجاوزتها في بعض الأعمال والوظائف، منها مكتبة دار الحكمة ودار العلم ومكتبات الأندلس ومكتبات الجوامع والمساجد في شمال إفريقيا ومكتبات المدارس وغيرها والتي سيتم التطرق إليها بالتفصيل خلال مجريات هذا البحث.

الإشكالية:

لطالما تم التطرق لتاريخ المكتبات والمؤسسات الثقافية بمختلف أنواعها، ودورها في خدمة العلم والبحث والفكر منذ القديم وحتى عصرنا هذا، من طرف الباحثين المختصين والمؤرخين. غير أن استعراض الموضوع حصر في الغالب في العالم المسيحي أو العالم القديم المتمثل في حضارات الرومان واليونان وحتى الآشوريين والبابليين والفراعنة، حيث خصصوا بدراسات وأبحاث مستفيضة، بل ونسبت كل التطورات والتحديثات في مجال العمل المكتبي وخدماته وأعماله الفنية، إلى هذه المكتبات وفي تناسي كبير لدور المكتبات العربية الإسلامية الرائدة في عصور ماضية، وصفت بالعصر الذهبي للعرب والمسلمين على جميع الأصعدة. فمكتبة دار الحكمة، مكتبة قرطبة، دار العلم، لا تزال أسماء مهمة وبارزة في تاريخ المكتبات العالمي، حيث تحفل كتب التاريخ بذلك. وتميزت الفترة التي ازدهرت فيها المكتبات العربية الإسلامية الممتدة من القرن التاسع إلى غاية القرن الثالث عشر الميلاديين، بالتطور والتقدم والرقي في جميع المجالات ولاسيما العلمية والأدبية والثقافية، والذي ساهمت المكتبات المتنوعة التي ظهرت في تطويره. كما أرسيت هذه

* كليماخوس: أشهر مكتبي أو بيبليوغرافي في التاريخ القديم أنشأ قائمة بمحتويات مكتبة الإسكندرية والذي يعتبر أقدم فهرس وجد خاص بالمكتبات القديمة.

المرافق أسسا و قواعد أعتبرت متطورة آنذاك وسابقة عصرها، حيث انتقلت المكتبات إلى الاهتمام بالرواد والمستفيدين من خلال توفير الكتب وتمكين طرق الإتاحة كما سنرى ذلك خلال مجريات هذا المقال.

فما هي المكتبات ؟ وكيف تعرف ؟ كيف نشأت المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ؟ كيف تطورت ؟ ماهي أنواعها وأشهرها ؟ ماذا قدمت من فائدة لمستفيديها ؟ ماذا أضافت لوظيفة ومهنة المكتبيين ما تأثيراتها على مثيلاتها في العالم الغربي المسيحي ؟

1. تعريف المكتبة:

هناك العديد من التعاريف التي شرحت وبينت مفهوم المكتبات إلا أن أشهرها جاء من طرف منظمة دولية الأولى على مستوى العالم التي تعنى بالجانب الثقافي. لقد عرّفت منظمة اليونسكو المكتبة بأنها "مهما اختلفت التسميات هي: كل مجموعة منظمة من الكتب المطبوعة والمطبوعات المسلسلة، أو أي وثائق أخرى - سمعية، بصرية - بالإضافة إلى خدمات الموظفين المكلفين بتسهيل استعمال هذه الوثائق؛ لأهداف التربية والبحث والترفيه." من خلال هذا التعريف الحديث الذي يتعرض لمكتبات في عصرنا ، أو على الأقل منذ أربعينات القرن الماضي، أين سيطرت الكتب المطبوعة ووسائل السمع البصري والميكروفورمات ثم مؤخرا الوسائط الرقمية والالكترونية ووثائق الانترنت.

من خلال هذا التعريف الشامل يمكن استخراج المعنى العام للمكتبة وهو:

- مجموعة كتب أو وثائق أخرى أي مختلف وسائط و أوعية المعلومات.
- مجموعة الكتب يجب أن تكون منظمة، أي مفهرسة ومصنفة ومرتبّة في رفوف.
- مجموعات الكتب المنظمة والموضوعة على رفوف تكون داخل بناية وهي التي تسمى المكتبة .
- وجود موظفين وهم المكتبيين يكونون الواسطة بين المجموعات المكتبية والمستفيدين والقراء.
- من أجل إرضاء المستفيدين يجب تطوير الخدمات وجعلها جيدة تستجيب دوما لمتطلبات المستفيدين.
- تهدف المكتبات بمختلف أنواعها تطوير الثقافة، القضاء على الأمية، إنتاج مجتمع يحب المطالعة والتثقيف، تساهم في تطوير البحث العلمي وحفظ التراث المكتوب.

2. الكتابة والكتب لدى العرب قبل الإسلام:

رغم ما أشيع عن العرب وحضارتهم بأنها شفوية غير مكتوبة. وأنهم خطباء وشعراء يقولون أشعارهم على السليقة. فلم يكن لديهم بما يشبه اليوم الاتجاه الأكاديمي الذي يعتمد التدوين والكتابة. خلافا مثلا للحضارات القديمة التي اشتهرت بالعلوم ومناهجها. غير أن ذلك يعتبر من الأحكام القاسية والغير منصفة فلقد أثبت التاريخ أن المنطقة العربية، عمودا من أعمدة البشرية التي أثرت في مجريات الوقائع والأحداث.

- فهل كانت للعرب كتابة ؟
- هل اكتفت البيئة العربية قبل الإسلام بفصاحة الكلام والخطابة دون الكتابة ؟
- هل هناك كتب عربية ؟

- هل كانت لدى العرب سلوكا لحزن التراث المكتوب وتشكيل مكتبات أو ما يشبهها ؟
- هل كان للإسلام وانتشاره دور في تطوير الكتب والمكتبات ؟

1.2 الكتاب العربي الإسلامي :

كلمة عرب ذات أصل آرامية (آراي) ومعناها ساكن الصحراء. وقد أطلقها الآراميون على سكان الصحراء الذين عاشوا في الجنوب أي في الجزيرة العربية. ونسب إليهم المكان واللغة والكتابة، فقبل جزيرة العرب، اللغة العربية، الخط العربي، الكتاب العربي.¹ لقد أثبت كتب التاريخ والآثار أن العرب عرفوا الكتابة قبل الإسلام ، فالكتابة العربية أشتقت من الكتابة النبطية نسبة إلى الأنباط وهم عرب من قريش رحلوا إلى الشمال واستقروا وكونوا دويلة لهم في جنوب الشام (الأردن حاليا) عاصمتهم البتراء.² فالكتابة ليست حكرا على أمة دون أخرى، فالتواجد الإنساني في العصور البدائية القديمة اثبت وجوده بالكتابات والتصوير والنقوش المكتشفة. قال ابن خلدون: " الخط والكتابة من الصنائع الإنسانية وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية"³

وعلى الرغم مما أشيع من انتشار الأمية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ فإن بعض الدلائل تشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام لفن الكتابة، وقد أشار محمد بن إسحاق النديم (ت 380هـ) صاحب كتاب "الفهرست" إلى معرفة عرب الجاهلية بالكتابة بالخط الحبشي، بالإضافة إلى تمكنهم من التدوين بخطوط قبائل جنوب الجزيرة من سبأ وحميز، وبجانب تعلمهم لفن الخط⁴. وعرف العرب التدوين والكتابة قبل الإسلام وكانت تقتصر على العهود والاتفاقيات والأحلاف، وكان عند مجيء الإسلام حوالي سبعمائة كاتباً في مكة.⁵ كما كان العرب في جاهليتهم يستخدمون قماش الحرير للكتابة أسموها المهارق، مفردها مهرق ذكروها كثيراً في أشعارهم. وهي لفظة فارسية الأصل مما يدل على أن الفرس استخدموا هذه المادة. و استعمال العرب لهذه المادة أما عن طريق صناعتها أو استيرادها من فارس.⁶ غير أن هذه الوسائط الحريية يبدو أنها محدودة الاستعمال، أو خصصت لبعض الكتابات القيمة والرسائل بين ملوك فارس وبعض القبائل الموالية. وقد استمر استخدام مواد الكتابة التي كانت معروفة في الجاهلية إلى ما بعد ظهور الإسلام، في كتابة الوحي المنزل على جذوع النخل والعظام العريضة والجلود وغيرها، ويرجع الفضل للرسول صلى الله عليه وسلم في أول استخدام لنظام الختم في شبه الجزيرة العربية، كما عرف عنه كثرة استخدامه للوثائق المدونة في تصريف شؤون الدولة؛ حيث كان يملئها على النسخ المنوط بهم هذا العمل.⁷ فالوحي أشهر ما كتب لدى العرب ناهيك عن بعض الرسائل والمعاهدات التي أبرمت في تلك المرحلة. والتعرض إلى مكتبات الحضارة العربية الإسلامية يشمل نماذج مما وثقه التاريخ عن المكتبات في عصر صدر الإسلام، ثمَّ العصر الأموي، ثمَّ العباسي.

¹ خليفة، شعبان عبد العزيز. الكتب والمكتبات في العصور الوسطى: الشرق المسلم- الشرق الأقصى. ط. 2. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2001. ص. 15

² خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع نفسه. ص. 18

³ مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن ابن خلدون ولي الدين، تحقيق عبد الله محمد الدرويش. ج.1. دار يعرب. ص. 417

⁴ خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع نفسه. ص. 18

⁵ نصار، حسين . نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1966. ص. 23

⁶ صوفي، عبد اللطيف. المدخل إلى علوم المكتبات والمعلومات. قسنطينة: المنشورات الجامعية. 2001. ص. 22

⁷ خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع السابق. ص. 20

2.2 المكتبات في الحضارة الإسلامية منذ صدر الإسلام :

- يمكن تقسيم مراحل تطور أداء المكتبات خلال ازدهار العصر الإسلامي إلى ثلاثة مراحل أساسية هي كالآتي :
- مرحلة الإنشاء والتأسيس وتمتد من بداية انتشار الإسلام خلال فترة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وجزء من العباسية.
 - مرحلة التطور والازدهار وهي المرحلة الأطول. الفترة العباسية إلى سقوط الدولة الأموية في الأندلس.
 - مرحلة التراجع والتقهقر.

3. المكتبات في صدر الإسلام :

حث الإسلام على العلم وعلى كل ما يتصل به، كما شجع على القراءة والتدبر والتحليل والتأمل. ولم يكن يدعو للتحجر ، وأول ما أنزل من القرآن الكريم قول ربنا سبحانه: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (سورة العلق: آية 1- 5) فكان العلم والتعلم والقراءة والكتابة أولوية وأساس هذا الدين، فبالعلم يأتي التطور والرفي، وانطلاقاً من هذا التصور والاعتقاد نجح المسلمون في بناء حضارة أساسها العلم وفرسانها العلماء.

في صدر الإسلام كان المسجد النبوي هو مكتبة المسلمين وبدأت كتابة القرآن، والحفاظ على الرقاع التي يكتب عليها، حيث كانت تحفظ في البيوت وتصان من التلف والتخريف، وكان هذا يمثل نقطة تشكل مفهوم المكتبات في الإسلام، وقد جُمعت هذه الرقاع والألواح في مكان واحد في خلافة الصديق حين بدأ بجمع القرآن الكريم إثر معركة اليمامة.

وقد أصبح اهتمام العرب المسلمون بالعلم كأحد أركان المجتمع ففي معركة بدر الكبرى جعل فداء بعض الأسرى تعليم القراءة والكتابة لعشرة من أولاد المسلمين.¹ خلال هذه الفترة الانتقالية والتأسيسية في التطور الحضاري العربي الإسلامي لم تكن هناك مكتبات بالمعنى الاصطلاحي للكلمة أي بنايات خصصت كخزائن لحفظ الكتب و إتاحتها للقراء. إلا أن هناك بعض العمال من شخصيات فاعلة في المجتمع الإسلامي حديث النشأة كان لها توجه لإنشاء النواة الأولى لبعض المكتبات التي شهدتها الحضارة الإسلامية في الحقب المتعاقبة. حيث عمل بعض الصحابة الكرام على تدوين ما تيسر لهم من الحديث والمسائل، كما أسس بعض الصحابة والتابعين مكتبات خاصة بهم يجمعون فيها صنوف الكتب والعلم، ويعدُّ هذا أول ظهور للمكتبات في الإسلام، فيذكر أن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس كان يملك كتباً كثيرة بلغت حِمل بعير، وكان لعبد الله بن عمر كتبٌ إذا خرج إلى السوق نظر فيها، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحفظ كتبه وصحفه في صندوق له حلق، ولعروة بن الزبير كتب احترقت يوم الحرة فحزن عليها وقال: (وددت لو أن عندي كتي بأهلي ومالي)²، وكان مجاهد بن جبير يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها.

انتشرت الكتابة في بدايات الإسلام. وبرزت كحركة ملفتة ميزت تلك الفترة وانقسمت الكتب إلى فئتين هما :

¹ . صبيح، إبراهيم. المكتبات العربية والثقافة المكتبية. إبراهيم صبيح، أحمد حمادة، سعود جابر. عمان: دار الجامعة للنشر والتوزيع. 1997. ص.7.

² . صبيح، إبراهيم. المرجع السابق. ص.9.

- **كتبة الوحي:** نظرا لتنافس وثقافت الكتبة على كتابة الوحي الذين يعتبرون الكتبة الأوائل في الحضارة الإسلامية. ولقد بلغ عددهم أربعون أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة، ثم معاوية بن أبي سفيان وأبي بن كعب وغيرهم¹
- **كتبة الشؤون العامة:** كما كان هناك كتاب آخرون للمداينات والمعاملات، الرسائل الذين ازداد عددهم بعد الهجرة. وخاصة بعد إنشاء الدواوين التي يرجع الفضل في ذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب.
- كما انتشرت الحركة التعليمية وكانت المساجد الحاضنة الأولى لها نظرا لكون المسجد في البداية كان الجامع الأول للمسلمين ومكان التقائهم، للصلاة في المقام الأول ثم مختلف النشاطات التي يعتبر العلم أبرزها.
- لذا يرجع الفضل للمساجد في إنشاء المكتبات الأولى في الحضارة العربية الإسلامية. قبل ذلك اعتبر بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، المدرسة وكذا المكتبة الأولى أين كان يخرج الوحي. مما يؤكد أن الانطلاقة العلمية والفكرية والحضارية للعالم العربي الإسلامية كانت تنهل من أساسيات الدين الإسلامي الذي حث على العلم والتعلم والقراءة.²

4. أنواع مكتبات الحضارة الإسلامية :

تقسم المكتبات إلى أنواع أو أنماط مختلفة، يتسم كل نوع بخصوصيات ومزايا. وتبنى التقسيمات على معايير ومواصفات متعددة أغلبها:

- نوعية الأرصادة تخصصاتها.
- فئات المستفيدين، طلبة، تلاميذ عامة الناس، باحثين.
- إتباع المكتبة لمؤسسة معينة كالجامعة أو المدرسة.
- وغير ذلك من المعايير والمواصفات التي وضعت في الغالب حديثا فسميت المكتبات العامة، المكتبات الجامعية، المكتبات الوطنية، المكتبات المتخصصة كما أدى التطور التكنولوجي المعاصر إلى بروز أنواع أخرى أشهرها ما أُصطلح عليها بالمكتبات الالكترونية.
- وإذا كانت المعايير الحديثة في تقسيم أنواع المكتبات اعتمدتها منظمات وجمعيات عالمية متخصصة مثل **إفلا*** و **إيزو***، كانت هناك معايير أخرى اعتمدت في تصنيف المكتبات وكانت في الأغلب خاصة بكل حضارة. بالنسبة للمكتبات في الحضارة الإسلامية فقد مرت بمراحل من حيث مهامها ووظائفها وأدوارها، وكانت أبرزها:³ مكتبات المساجد والجامع وهي مكتبات ملحقة ولها صفة تعليمية وتدرسية.
- بيت العلم، فيها من مختلف العلوم وهي أقرب إلى المكتبات العامة.
- مكتبات الخلفاء أو الدولة وهي أقرب إلى المكتبات الوطنية.
- مكتبة في شكل حجرة أو قاعة تعتمد على المواضيع ذات الصلة بالحكمة وهي أقرب إلى المكتبات البحثية الحديثة.

¹ صبيح، إبراهيم. المرجع نفسه. ص. 9. ص. 10

² صبيح، إبراهيم. المرجع نفسه. ص. 10

* **إيزو (iso)** وهي المنظمة الدولية للتقييس. وهي منظمة تعمل على وضع **المعايير** والمواصفات، وتضم هذه المنظمة ممثلين من عدة منظمات دولية للمعايير. تأسست في **23 فبراير 1947**.

مثلا مواصفة إيزو 9000 خاصة بجودة المنتجات الصناعية في مجال المكتبات مواصفة 11620 لقياس جودة المكتبات العامة.

* **إفلا (ifla)** لاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المكتبات اختصارا **إفلا (IFLA)**، هو منظمة غير حكومية مستقلة، ويعتبر أهم منظمة دولية تمثل مصالح المكتبات ومرافق المعلومات

³ صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق نفسه. ص. 30

- كانت أكبر المكتبات في العالم الإسلامي تتواجد في أهم المدن وأكبرها، بغداد بها بيت الحكمة، مكتبة بني عمار بدمشق، مكتبة دار العلم بالقاهرة، مكتبة قرطبة بالأندلس.¹ كما هو الشأن اليوم أكبر المكتبات تتواجد في العواصم الكبرى للدول.

ويجمع المؤرخون بمختلف توجهاتهم إلى كون مكتبات المساجد والجوامع أول نوع من المكتبات التي ظهرت في بداية عصر الحضارة العربية الإسلامية، كشكل جديد من المكتبات يتميز بخصوصيات ومزايا تصب في مجملها لخدمة المستفيدين والقراء والرواد. لقد أضافت هذه الحضارة أي العربية الإسلامية نمطا جديدا من المكتبات التي كانت قبل ذلك في مجملها كمكتبات عامة أو تلك المرتبطة بالقصور أو الأمراء والحكام.

1.4 مكتبات المساجد والجوامع:

تتفق أغلب الدراسات ذات الشأن الخاص بتاريخ المكتبات، أن مكتبات المساجد في بداية العصر الإسلامي وبعدها مكتبات الجوامع تعتبر أول أنواع المكتبات التي ازدهرت وجاءت بأساليب جديدة لخدمة القراء والمستفيدين في ذلك العصر. ورغم أنها ليست مكتبات متطورة بالمفهوم الوظيفي المحض، أي أنها ليست مكتبات قائمة بذاتها. إلا أنها أتت بمفهوم متطور للخدمة المكتبية ألا وهي الإتاحة للجميع دون شروط مقيدة وهذا يرجع إلى العقيدة الإسلامية التي بنيت أساسا على طلب العلم ليس من أجل الشهرة أو المنافع المادية بقدر ما هي تمتين الجانب الإيماني في الإنسان الذي يعبد ربه أفضل بتطوير قدراته العلمية، وذلك لن يتأتى إلا في المساجد التي يتم الاجتماع فيها يوميا من أجل الصلاة. لقد استثمر المسلمون أماكن العبادة في خدمة العلم بصفة واعية خلافا عن باقي الديانات التي كانت تحاصر الشعوب في جعلها تكتفي بقدر معين من التعلم ولفتة محدودة منتقاة حسب التوجه الذي ينتهجه حكامها ورجال الدين وهذا ما سيوضح عند التطرق للمكتبات الغربية في أوروبا في القرون الوسطى مثلا.

1.1.4 أشهر وأكبر مكتبات المساجد والجوامع في التاريخ الإسلامي :

أنشأ هذا النوع من المكتبات كملاحق في المساجد والجوامع أي ليست بناية المكتبة مستقلة مكتبة تسمى بهذا الاسم بل أنها داخل المسجد ومتصلة بدور ووظيفة المسجد ولا يمكن أن تكون بدونه. وقد ظهرت قبل إنشاء المدارس بقرنين على الأقل² ولعل أشهر هذه المكتبات،

-مكتبة المسجد النبوي والذي لا تزال حتى الآن من أهم المكتبات وأقواها في العالم العربي، بما تقدمه من خدمات جليلة للقراء وطلبة العلم. وكانت في بداياتها موقوفة على طلبة العلم.

- مكتبة الجامع الأزهر الذي بدورها بقيت حتى الآن غير أنها لم تعد تصنف ضمن مكتبات الجوامع أو المساجد، فهي حديثا مكتبة جامعية تابعة للجامعة الأزهر.

- الجامع الكبير في القيروان.

- مكتبة الجامع الأموي بدمشق، كانت موقوفة على من يريد المطالعة.

¹ . إسماعيل ، أحمد علي. تاريخ بلاد الشام : دراسة اجتماعية اقتصادية فكرية عسكرية. دمشق: مركز الشام للخدمات الطباعة. 1998. ص.3.

² . صوفي، عبد اللطيف. محات من تاريخ الكتب والمكتبات. دمشق: دار طلاس للطباعة والترجمة، 1987. ص.211

- مكتبات الأندلس بالمسجد الكبير في قرطبة أسس سنة (170هـ - 786م) الذي أسسه عبد الرحمن الداخل (مؤسس الدولة الأموية في الأندلس). وكانت تحتوي على مجموعة كبيرة من الكتب والمصاحف¹

2.1.4 خصوصيات مكتبات المساجد والجوامع:

لمكتبات المساجد والجوامع خصوصيات ومميزات عن مثيلاتها من المكتبات. لكون الأماكن التي توجد بداخلها لها من القدسية والاحترام لدى المسلمين ما يجعلها تختص باهتمام جميع فئات المجتمع بمختلف شرائحهم دون تمييز، فالأثرياء مثلاً كانوا يوقفون أشياء كثيرة على المساجد ومنها الكتب. كما كان عامة الناس يودعون القرآن وبعض الكتب الدينية من أجل المطالعين والمصلين، وهذا ابتغاء للأجر وفعل الخير وهو مصدر جيد لبناء أرصدة هذه المكتبات وبدون تكاليف. فطلب العلم ومساعدة طلاب العلم ورواد بيت الله من القيم والأسس التي دأب عليها المجتمع العربي الإسلامي. وبقي إلى يومنا هذا. وكان الحكام والخلفاء يغدقون على خزانات مكتبات المساجد بالمصاحف والكتب الدينية وحتى العلمية والفلسفية. حيث ذكر المقرئ أن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، " قد أنزل إلى الجامع العتيق ألفاً ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات فيها ماهو مكتوب بالذهب، ويمكن الناس من القراءة فيها"²

ومن مميزات مكتبات المساجد الأولى أنها "لا تحتوي على كتب دينية فقط، بل كتب فلسفية وعلمية. وكانت تدرس في المساجد جميع العلوم ما عدا الطب"³ لقد وظف المسجد في الحضارة الإسلامية لخدمة متطلبات الناس فقد كان المكان الأول الذي تصاغ فيه إدارة الدولة كم أنه ملاذ لجميع الناس إضافة إلى أنه البيئة الأمثل لطلب العلم سواء بالأساليب التعليمية أو الاطلاع على الكتب والمصنفات.

وإذا كانت المكتبات العامة عرفت بأنها مدرسة الشعب الأولى، فإن مكتبات المساجد والجوامع ثمنت هذه الوظيفة وطورتها وزادت من الخدمات والتسهيلات للرواد. وطالبي العلم. وكان الوقف المورد الأساسي في تنمية وتزويد أرصدة هذا النوع من المكتبات، فالعرب المسلمون يرون في خدمة القراء والطلاب والعلماء عبر الخدمات التي تقدمها المكتبات، من أنبل وأرقى أعمال الخير فتنافسوا على ذلك.

3.4 مكتبات الخلفاء :

اهتم الخلفاء بإعمار المكتبات و تطويرها. وكان منهم من لديهم مكانة علمية جعلتهم أحرص فئات المجتمع على هذه الهيئات المهمة لذا أطلق اسم مكتبات الخلفاء. وفي الحقيقة لطالما ارتبط أسماء بعض الحكام عبر التاريخ بتشييد المكتبات وخلد ذكرهم ففي القديم لا يكاد يذكر شيء عن الملك آشور بانيبال سوى ارتباطه بمكتبة نينوى التي تعتبر أقدم مكتبة كبيرة في العالم، مكتبة الإسكندرية نسبة، والذي شيدها الملك بطليموس.

¹ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص 211

² . المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ. القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ج 1 ص.250

³ . حمادة، محمد ماهر. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرهما. بيروت مؤسسة الرسالة: 1996. ص.83

لقد أدرك الحكام والمسؤولين أن أقوى الطرق والأساليب التي تمكنهم من تخليد إنجازاتهم هي الاهتمام بالعلم والتعليم فتنافسوا في ذلك وكان للخلفاء الذين حكموا خلال فترة ازدهار الحضارة الإسلامية، مساهمات وإنجازات جليلة تمثلت في إنشاء مكاتب عظيمة لا تخلو كتب التاريخ العربية أو غير العربية من الإشادة .

ولما ارتبط اسم هذا النوع من المكاتب بالخلفاء وهي التسمية الجديدة للحكام إبان الحكم الإسلامي الذي امتد لقرون، عرفت البشرية فيه أرقى وأزهى عصور التقدم والازدهار، ولم يقتصر الأمر على الخلفاء فقط بل برز بعض الوزراء العظماء ساهموا في تشييد وتطوير المكاتب. ونلخص أزمان هذه الفترة في الآتي:

- الخلفاء الراشدون الأربعة 11-40 هـ (632-661م)
- الخلفاء الأمويون 40-132 هـ (661-750م)
- الخلفاء العباسيون 132-656 هـ (750-1258م)
- خلال فترة حكم العباسيين اعتبرت الفترة 132-232 هـ (750-847م)¹ العصر الذهبي الذي بدأت فيه المكاتب في التطور، وعرف العالم نوعا جديدا من هذه المؤسسات التي لم تعد تخزن الكتب فقط بل تعمل على إتاحتها لمختلف المستفيدين والمهتمين. وازدهرت مكاتب الخلفاء وأصبحت النوع الأول والأقوى وذلك لما حظيت به من دعم مؤسسيها وإغداقهم الأموال لتطورها.

- الأمويون في الأندلس 759م-1492م الذين صنعوا حضارة عمرانية لا يزال تأثيرها إلى اليوم.
- إضافة إلى الدول الإسلامية الغير عربية في الهند وفارس وغيرها
- الانحطاط ونشأة الدويلات والسقوط

ثم جاء عصر الدويلات والسقوط 232هـ- 656هـ (847-1258م) وفيه عانت الدولة من تقهقر وضعف على جميع الأصعدة وكان الضحية الأكبر هي مكاتب الخلفاء الذين أهملوها ولم يعد أي خليفة يفكر في مثل هذه الأشياء. أثبتت الأحداث التاريخية أن ازدهار الحركة التعليمية أو الفكرية أو الثقافية في أي بلد أو أي حضارة، مربوطا بمدى استقرارها وتطورها لذا فإن جل المكاتب الشهيرة عبر التاريخ وجدت في الحضارات والأماكن التي عرفت قدرا من الرقي والتطور . ولازال الأمر كذلك إلى يومنا هذا فالمكاتب الحديثة الناحجة تجدها في دول العالم المتطورة اقتصاديا وصناعيا.

1.3.4 أشهر الخلفاء الذين أسسوا وطوروا المكاتب:

يعدُّ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أول من أمر بتدوين القصص والتاريخ وكتابته على الورق، وكان له الفضل في إنشاء المكاتب بمفهومها الواسع خاصة بعد أن أنشأ مكتبة بيت الحكمة في دمشق وحظيت باهتمام الخلفاء من بعده.² وتعد هذه المكتبة منطلقا جديدا ومفهوما أحدث للخدمة المكتبية، بعد أن ظلت المكاتب لا تتجاوز المعنى البسيط للخدمة وهي جمع الرقاع والمصاحف وبعض المكتوبات. (توضيح حول بيت الحكمة) بعده جاء حفيده خالد بن يزيد مؤسس مكتبة مركز النقل والتعريب وكان شغوبا بالعلم خاصة علوم الكيمياء، حيث أمر بإحضار كتب اليونان والقبط إلى دمشق وترجمتها إلى العربية، وبذلك وضع

¹ خليفة عبد العزيز، شعبان. المرجع السابق. ص.22.

² صوفي، عبد اللطيف. مدخل إلى علم المكتبات. المرجع نفسه. ص. 56

أول أساس للمكتبات العلمية في عالمنا الإسلامي¹، وكانت حركة الترجمة من أهم العوامل التي ساعدت في تطور المجال العلمي والمكتبات بصفة خاصة في تلك الفترة. كما كانت الأسلوب الأوحده لإنتاج الكتب والمصنفات. ورغم ذلك استمر ضعف حركة التدوين واقتناء الكتب، واقتصرت المكتبات على الصعيد الشخصي؛ وتواصل اعتماد أهل العلم على المشافهة والتلقي لا التدوين في الكتب، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فأمر بكتابة السنن وتدوينها، فانطلقت حركة التدوين للسنة النبوية وأقوال الصحابة والفقهاء والتفسير وسائر العلوم الإسلامية والتاريخ وبرز أشهر المدونين والكتاب في العصر الأموي الإمام **الزهري** و**محمد بن إسحاق** كاتب السيرة النبوية، والإمام **مالك** صاحب الموطأ.²

كما سجل الخلفاء العباسيون أسماءهم بقوة، كسادة متميزين في إنشاء المكتبات وتطويرها. وسميت بأسمائهم فهناك مكتبة أبي جعفر المنصور، مكتب الرشيد (دار الحكمة في بغداد) المكتبة الأسطورية التي نسجت عنها حكايات فاقت الخيال، خاصة بعد تدميرها من طرف المغول. مكتبة المأمون الذي يمثل العصر الذهبي في العلم والمعرفة، والمستنصر بالله و غيرهم. حتى آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله، أنشأ خزانتي للكتب (الخزانة بمعنى المكتبة) نقل إليهما العديد من أمهات ونفائس الكتب وجعل عليهما خازنين وكان الخليفة يرتادهما بالتناوب.³

كما برزت مكتبة الأمير سيف الدولة الحمداني في حلب. كما كان معظم خلفاء الدولة الأموية بالأندلس، شغوفين بالمكتبات والكتب والعلم والفن، فقد بنى الخليفة الحكم الثاني " مكتبة عظيمة في قرطبة قال بعض المؤرخين في حق هذا الخليفة : جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة وقيمة، حتى قيل أنها كانت أربعمئة ألف مجلد. وأنهم نقلوها في مدة ستة أشهر، وكان يأتي بالمصنفات أي يقوم بعملية التزويد بلغة المكتبات المعاصرة، من الأقاليم والنواحي بأذلا فيه ما أمكنه من الأموال حتى ضاقت خزائنه⁴

ورغم ضخامة عدد المجلدات المذكور في هذه الرواية والذي يبدو مبالغاً فيه، لأن إمكانيات ذلك العصر محدودة ؟ إلا أن هذا الخليفة أرسى قواعد حديثة في تزويد وتنمية مجموعات مكتبته خاصة في بذله للأموال من أجل الحصول على المصنفات، أي الإنفاق وتحديد ميزانية ضخمة للشراء بلغة علوم المكتبات الحديثة، والتي تعتبر عملية الشراء هي الأهم ضمن طرق تزويد المكتبات. وفي عصر العباسيين انتشرت حركة التدوين والنسخ أكثر، وكثر التأليف في مختلف العلوم، وعلى رأسها الحديث الشريف والتفسير واللغة والشعر والسيرة والتاريخ والمنطق والفلسفة والطب، وكان الخلفاء العباسيون يجزلون العطاء على العلم والتأليف حتى كان المأمون يعطي للمؤلفين وزن كتبهم ذهباً.

4.4 المكتبات الخاصة و مكتبات العلماء:

انتشر في العصر العباسي نوعان من المكتبات هما المكتبات الخاصة والمكتبات العامة، والمكتبات الخاصة لا تعني المكتبات المتخصصة بالمفهوم الحديث، بل هي خاصة الأغنياء والوزراء وكذا بعض العلماء والشخصيات المرموقة التي لها ولع بالكتب والعلوم.

¹ . حمادة، محمد ماهر . المرجع السابق، ص.146

² . صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق. ص.57.

³ . صبيح، إبراهيم. المكتبات العربية والثقافة المكتبية . المرجع السابق، ص.112

⁴ . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. احمد بن محمد التلمساني المقرئ. تحقيق حسان عباس. بيروت: دار صادر . 1968. ص395

وكان من بين هؤلاء من أتاح مكتبته لجميع الناس وبالتالي هي ملكية خاص لكن ذات طابع عمومي من حيث الخدمة. والبعض الآخر خصصها للعلماء والباحثين أي في مقام المكتبات البحثية في حاضرتنا اليوم. ومن أشهر المكتبات الخاصة زمن الحضارة الإسلامية:

- **مكتبة الجاحظ**: شهد العصر العباسي بروز عدد كبير من العلماء والأدباء والفلاسفة، كجابر بن حيان والكندي وأبي بكر الرازي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم، وقد اجتمع لدى العديد من العلماء مكتبات خاصة نقل لنا المؤرخون أخبار بعضها، منها، مكتبة الجاحظ كان أبو عثمان الجاحظ يملك مكتبة ضخمة، حتى أنه فيما اشتهر عنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة، وذكر ياقوت الحموي عن أحد معاصريه ومن عاشوا معه: (لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان)¹، ولا عجب إذ يفرد الصفحات الطوال في كتبه للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها، فألف رحمه الله العديد من الكتب، وكانت له مكتبة ضخمة حتى إنه كان يطالع يوما فيها فوقع عليه صف من الكتب أرداه ميتا رحمه الله.

- مكتبة الفتح بن خاقان

- مكتبة الكندي

- جعفر بن حمدان الموصل

- **علي بن يحيى المنجم**: الذي كان من جالس الخلفاء. ثم أسس حوالي منتصف القرن الثالث هجري، خزانة كتب عظيمة في ضيعته وسماها خزانة الحكمة، وكان يقصدها الناس من كل بلد. فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلوم والكتب وكانت النفقة على ابن يحيى.²

- **مكتبة الصاحب بن عباد**: وهي أشهر وأضخم مكتبات الوزراء، فقد أحصى أزيد من مائتي ألف مجلد (200000)³ وهو عدد ضخم حتى بالمقاييس الحديثة للمكتبات العصرية الحديثة. وهو عدد يفوق ما كان موجودا في جميع مكتبات أوروبا العامة والخاصة آنذاك. وذكر أيضا أن سلطان خراسان كتب لأبي القاسم الصاحب بن عباد ورقة يستدعيه لحضرته ليقبله الوزارة فأجابه معتذرا: (كيف لي بحمل أثقال وعندي من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمئة جمل أو أكثر)

- **مكتبات أخرى:**

هناك عديد المكتبات التي اشتهرت وكان لها باع في زمانها. على غرار مكتبة الطبيب القيرواني ابن الجزار في الأندلس. وقال الكتاني أيضا: (كان في مكة مكتبة المؤرخ قطب الدين النهرواني الحنفي، كان عظيم الجاه عند الأتراك، وكانوا يعطونه العطاء الواسع، فكان يشتري بما يحصله نفائس الكتب ويبدلها لمن يحتاجها، فاجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند غيره، ومكتبة أبي الغيث القشاشي التونسي، كان صاحب جاه عظيم ومال كثير، بنى جوامع ومدارس وقناطر، وجمع من نفائس الكتب ما لا يحصى... وكذا مكتبة

¹ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق. ص. 57.

² . منر، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. ت: عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1957. ص 307

³ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق. ص. 59.

أبي المواهب شرف الدين الأنصاري، كانت كتبه كثيرة، وكان حريصاً على خطوط العلماء ضميناً بها، ومن جملة كتبه ثماني عشرة نسخة من طبقات السبكي وثمانية وعشرون شرحاً على البخاري وأربعون تفسيراً. وقد أوقف العديد من العلماء كتبهم ومكتباتهم على طلاب العلم، كالإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي رحمه الله، الذي وضع مؤلفاته الكثيرة في دار خاصة وجعلها وفقاً لأهل العلم.

5. المكتبات العامة في التاريخ الإسلامي:

من أشهر وأقدم أنواع المكتبات التي ظهرت هي المكتبات العامة. ولا يزال هذا النوع يؤدي الدور الأول العلمي والثقافي في أي بلد ولا يمكن أن تخلو منها، وإذا كانت مكتبات الخلفاء والمكتبات الخاصة عرفت بصمة الحضارة الإسلامي، أما بالنسبة لمكتبات الجوامع والمساجد فهي ميزة ومبتكر إسلامي دون منازع، فإن المكتبات العامة وليدة الحضارات القديمة وموجودة ببدأ نشأة المكتبات الأولى.

ويمكن تعريف المكتبة العامة بأنها مؤسسة ثقافية تربية تعنى بجمع النتاج الفكري الذي يتوافق مع الاتجاهات الفكرية والثقافية السائدة لشريحة واسعة من الناس الذين يتواجدون في رقعة جغرافية محددة، فضلاً على أنها المكتبة التي توفر إمكانية الوصول إلى مقتنياتها لعموم أفراد المجتمع دون قيود أو شروط وبشكل مجاني، و غالباً ما يتم الإنفاق على المكتبات العامة من الموازنة العامة للدولة. و المكتبة العامة بهذا المعنى، تعد من أهم المؤسسات التي تعمل على نشر المعرفة و الارتقاء بمستوى الفن والثقافة في المجتمع. و تستمد المكتبة العامة عموميتها من الآتي:¹

أ. **عمومية المقتنيات:** فمقتنيات المكتبة العامة لا تخصص في مجال موضوعي معين و إنما تشمل موضوعات كثيرة جداً فيها مثل الأدب، اللغة، الديانات، الرياضيات، المكتبات... الخ من الموضوعات؛

ب. **عمومية المستفيدين:** تتميز المكتبة العامة بعمومية مستفيديها فهي لا تميز بينهم على أساس الجنس، أو اللون أو المستوى الاجتماعي، بل تسمح لكل الفئات بالدخول إليها و الاطلاع داخلها و التمتع بخدماتها، و من هنا يقال " أن المكتبة العامة جامعة الشعب تهب العلم لمن يفد إليها.

إن مفهوم المكتبات الحديث يرتبط بطبيعة الخدمة التي يقدمها وكذا فئات المستفيدين، فقد تكون مكتبة المسجد أو الجامع التي تخدم عامة من القراء الرواد، ذات طبيعة عامة. وقد تكون متخصصة إذا كان الرواد من العلماء والباحثين. ورغم تميز الحضارة العربية الإسلامية بأنها أضافت للبشرية نوعية جديدة من المكتبات، اعتبرت المكتبات العامة إحدى أبرز معالم النهضة العلمية عند العرب والمسلمين، وقد كثرت منذ أواخر القرن الثاني الهجري، وتنافس الخلفاء في الحصول على أنفس الكتب وأندرها حتى زحرت المكتبات العامة بآلاف المجلدات، وانتشرت خزائن الكتب في أقطار العالم الإسلامي من سمرقند وفاس إلى بخارى وقرطبة ومن بغداد ودمشق إلى حلب والقاهرة، وأمدتها الأمراء والخلفاء بما تحتاج إليه من الموظفين والمواد الكتابية وما يلزم لتجليد الكتب.²

¹ . الضبيان، سعد عبد الله. إطلالة تاريخية على المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية. الرياض: مكتبة الملك فهد، 1994. ص.ص. 15-17.

² . صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق. ص. 59.

ولقد كان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه - بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه - أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية. وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد، بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل. ومن أشهر المكتبات العامة في تاريخ نهضتنا الإسلامية مكتبة دار الحكمة ببغداد ودار العلم بالقاهرة ومكتبة قرطبة بالأندلس وكذا مكتبة جامع الزيتونة ومكتبة جامع القرويين.

1.5 مكتبة بيت الحكمة أو دار الحكمة:

أو دار الحكمة، وهي من أشهر المكتبات في العصر العباسي، وهي أول مكتبة أكاديمية وعامة في العصور الوسطى، ويمكن تصنيفها كمكتبة وطنية حديثاً. ويُرجع المؤرخون بداية تأسيسها إلى الخليفة هارون الرشيد. ثم رعاها من بعده المأمون الذي قيل أنه نقل إليها من القسطنطينية حمولة مائة جمل تنفيذاً لمعاهدة الصلح التي وقعها مع الروم البيزنطيين، كما أمر بترجمة الكتب الهامة إلى العربية.¹ وحفلت المكتبة بمئات الآلاف من الكتب وقد تردد إلى هذه المكتبة بحثاً وتأليفاً علماء كثر، منهم الكندي والخوارزمي، كما عمل فيها بعض العلماء والفلاسفة كإسحاق بن حنين الذي أشرف على ترجمة العديد من الكتب في العلوم الطبية والفلسفية والفلكية اليونانية² وكانت أرصدتها تحتوي على عدد هائل من الكتب في التراث الإسلامي والإنساني على السواء، ككتب التراجم والسير ومصنفات الكيمياء والفلك والطب والجبر، واحتوت على مرصد فلكي، وكانت تحوي قاعة للمطالعة، وغرف للمحاضرات والمناظرات، وغرفة للاستراحة، وأخرى للمترجمين، وبعضها للنساخين، وللمجلدين والوراقين، وغرفاً للخازنين والمناولين، والتدريس، وغرفاً أخرى لسكن طلاب العلم. وقدمت المكتبة خدمة الإعارة الداخلية والخارجية،³ وهي نقلة نوعية في مكتبات تلك العصور. حيث تخطت هذه المكتبة وظيفة خزن الكتب فقط إلى أخرى أحدث وأسمى وهي تمكين الرواد من استعارة الكتب خارج المكتبة، وهو معيار تقاس عليه جودة خدمات المكتبات الكبرى في عصرنا هذا، والتي تقاس بحصة المستفيدين أي عدد الكتب التي يمكنهم إعارتها. إلا أن هذه المكتبة العظيمة تعرضت للتدمير والإتلاف من طرف المغول الذين غزو بغداد سنة 656هـ، في حوادث نسجت حولها الأساطير حيث نهبوا وخرّبوا وألقوا بآلاف الكتب في النهر، كما جعلت أوراقها الجلدية أحذية سروج لخيولهم. وبغض النظر عن المبالغات التي جاء بها الرواة في وصف الهول والتدمير الذي طال بغداد، فإن تدمير مكتبة دار الحكمة ببغداد أثناء هجوم المغول. كانت خسارة كبيرة وفاجعة للعلم وآثار الإنسانية عبر الزمن.

2.5 مكتبة دار العلم أو دار الحكمة بالقاهرة:

أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة. حيث بنى لها بناء ضخماً ألحق بقصره، فرشهُ وأثنه وزوده بأعداد كبيرة من الكتب في مختلف العلوم والفنون. وقد جعل فيها أقساماً: للفقهاء، المنجمين، اللغويين، النحاة والأطباء. وكانت المطالعة بهذه المكتبة متاحة لجميع الناس،⁴ مما يؤكد على تطور الخدمة العمومية كوظيفة أساسية للمكتبات إبان تلك الفترة. كما زودت المكتبة بأوراق وأحبار وأقلام من أجل تمكين الرواد والقراء من استخدام إمكانيات المكتبة لما يشبه النسخ وتصوير الكتب في عصرنا الحالي.

¹ . قزنجي، فؤاد. المكتبات والصناعة المكتبية في العراق. بغداد: مطبعة الجمهورية، 1972. ص. 21

² . صوفي، عبد اللطيف. مدخل إلى علوم المكتبات والمعلومات. ص. 58

³ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 59

⁴ . مكي، الطاهر أحمد، دراسة في مصادر الآداب. ط2، القاهرة: دار المعارف، 1963. ص. 353

ولقد أعتبر هذا الصرح من أكبر المكتبات الأكاديمية العامة، وكانت مكتبة منتجة حيث تم نسخ العديد من الكتب فمثلاً، نسخ بها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري وثلاثون نسخة لكتاب العين للفراهيدي.¹ وكانت المكتبة في أوج ازدهارها بها مليون وستمائة ألف مجلد.² وهو عدد ضخم حتى بالمقاييس الحديثة، لحجم أرصدة المكتبات. إلا أن هذه الثروة والكنوز العلمية لم تسلم من لعنة الحروب حيث أتلفت ودمرت في حروب فتن داخلية.³

3.5 مكتبة قرطبة بالأندلس:

تأسست في مدينة الزهراء التابعة لقرطبة المدينة الشهيرة الأسطورية التي أبهرت ولا تزال تبهر العالم حتى يومنا هذا. وتعتبر المدينة الثانية من حيث الشهرة لفترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، بعد بغداد عاصمة العباسيين. وبنيت المكتبة في القرن الرابع للهجرة، من طرف الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر، وحققت شهرتها في عهد ابنه الخليفة الحكم الثاني المستنصر. المهتم بالعلم والثقافة والذي أنفق أموالاً كبيرة وجلب أرصدة الكتب الضخمة من مختلف الأقطار وصل عدد مجلداتها إلى أربعمئة ألف. كتبت فهارسها في أربع وأربعين كراس، كل كراسة بها خمسة وخمسين ورقة، خصصت عشرون منها لفهارس دواوين الشعر فقط.⁴ ولاقت هذه الجوهرة مصير مثيلاتها من المكتبات، حيث دمرت على يد الإسبان بعد سقوط الأندلس عام 1492م⁵

4.5 مكتبة دار العلم بطرابلس الشام :

تأسست على يد بني عمار في القرن العاشر الميلادي، ويطلق عليها كذلك مكتبة بني عمار تيمناً بمؤسسها. واعتبرت مكتبة ضخمة لكونها حوت حوالي ثلاثة ملايين كتاب منها خمسين نسخة من القرآن العظيم، حسب بعض المؤرخين. وعمل بها أكثر من مائة وثمانين موظفاً. وكانت المكتبة مرتبة ومصنفة تصنيفاً موضوعياً أي تتواجد الكتب في الرفوف بحسب مواضيعها، مما يدل على تنوع وكثرة الكتب.

أحرقت هذه المكتبة من طرف الصليبيين، أين ظن القائد الصليبي أن الكتب ذات صبغ دينية إسلامية فقط فأحرقت على هذا الأساس لكنهم اكتشفوا بأن الكتب بهذه المكتبة متنوعة منها العلمية القيمة، فاحذوا منه ما تبقى لكن الرصيد الأكبر تم إحراقه.⁶ تعتبر هذه المكتبات الأربعة، أهم وأشهر مكتبات الحضارة العربية الإسلامية. حسب جل المصادر التي تناولت تاريخ هذه المؤسسات إبان ازدهار العالم العربي والإسلامي. وهي مكتبات عامة بحسب التعريف الحديث لهذا النوع الذي يعتبر الأشهر حتى في عالمنا الحديث، فنقول مثلاً أن أكبر مكتبة حالياً هي مكتبة الكونغرس الأمريكي التي تعتبر المكتبة الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية وهي عامة في خدماتها ومواضيعها، في العالم القديم نجد مكتبة الإسكندرية العامة بمصر الأشهر كما أن مكتبة دار الحكمة العامة ببغداد الأشهر بعصر ازدهار العرب والمسلمين. ولقد أنصف المؤرخون والعلماء في إبراز قيمة المكتبات السابقة الذكر والتي تعتبر أمهات المكتبات الحديثة.

¹ . مكي، الطاهر أحمد. المرجع السابق. ص.353

² . هونكه، زيفريد. شمس العرب تسطع على الغرب. ط.5، ترجمة فاروق بيوض، كمال دسوقي. بيروت : دار الآفاق الجديدة، 1981. ص. 387

³ . صوفي، عبد اللطيف. مدخل الى علوم المكتبات والمعلومات. المرجع نفسه. ص. 58.

⁴ . مكي، الطاهر أحمد. المرجع السابق. ص. 61

⁵ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 60

⁶ . حمادة، محمد ماهر. المرجع نفسه. ص. 134

لعل أسماء المكتبات التي تم استعراضها، اشتهرت في كلمات على غرار، دار، بيت، الحكمة، العلم. وتكرر ذلك في مختلف عصور الحضارة الإسلامية، ومختلف المدن. فلماذا اقتصر اسم معظم المكتبات في هذه الأوصاف والتسميات؟ وماذا تعني؟

5.5 خصوصية الأسماء التي أطلقت على المكتبات العربية الإسلامية :

رغم أن اسم بيت الحكمة في بغداد هي أشهر المكتبات العامة والأكاديمية في الحضارة الإسلامية، إلا أن هذا الاسم يصادف في العديد من المكتبات. لقد أطلق العرب المسلمون أسماء مثل بيت، دار، خزانة كدلالة على المكان الذي تخزن فيه الكتب،¹ أي البناية أو المخازن بلغة علوم المكتبات الحديثة. بينما الكلمة المضافة مثل: الحكمة، العلم، الكتب. تدل على محتويات ومواضيع وتخصص الكتب عموماً، أو أقسام المكتبة ومحتوياتها. بالنسبة للفرق بين الدار و البيت، الدار أكبر من البيت، وفي الحقيقة بقيت هذه الأوصاف تطلق على المرافق الحكومية حتى أيامنا ولو بصفة غير رسمية فالذاكرة الجماعية تعودت عليها فنقول مثلاً: دار الثقافة، دار المالية، دار الكتب، دار المير أو الوالي أي الحاكم وغيرهم. الخزانة تشير في عمومها إلى المكتبات الخاصة أو الشخصية لذا فإن استعمال اسم خزانة الكتب يشير في معظمه إلى المكتبات الملحقة بالقصور أو المساجد أو المدارس.

ومن المكتبات الشهيرة في إفريقيا مكتبة جامع الزيتونة بتونس، المعروفة بالعبدية، وعدد مجلداتها خمسة آلاف ومئتان وتسعة وأربعون، وعد بعضهم ما اشتملت عليه خزانة جامع الزيتونة فقال: اشتملت على أزيد من سبعة آلاف مجلد، وقد استمر الجامع بما فيه من شيوخ ودروس وكتب منارة للعلم في إفريقيا قرونًا عدة وما زال.²

ومن المكتبات الإسلامية العريقة في شمال إفريقيا مكتبة جامع القرويين بالمغرب، والتي كان يحج إليها الناس من بقاع العالم يطلبون العلم فيها، وما زالت إلى يومنا هذا حاضنة للمثقفين وطلاب العلم والباحثين. وغيرها كثير من المكتبات التي لا يسع المقام لذكرها كلها، وهذا يدل على الازدهار الثقافي والعلمي والحضاري الذي عرفه تاريخنا الإسلامي، وعلى أهمية المكتبات في دفع عجلة العلم والحضارة.

6. المكتبات المدرسية :

اهتمت الحضارة الإسلامية بإنشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعاً، وقد أُلحِقَت المكتبات بهذه المدارس، وهو الشيء الطبيعي المكمل لهذا الرقي والازدهار، وبشكل عام فقد انتشرت المدارس في الإسلام انتشاراً واسعاً في مدن العراق وسوريا ومصر وغيرها، وقد أُلحِقَت بمعظم المدارس الإسلامية مكتبات. وذكر أغلب المؤرخين أن أول من أسسها في الإسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، رغم أنها أو جدت قبل ذلك إلا أن هذا الوزير طورها ونشرها في عدد كبير من المدن مثل بغداد واصفهان ونيسابور ثم توسعت لتشمل كل العواصم الإسلامية مثل "المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية ببغداد؛ المدرسة البدرية في الموصل؛ المدرسة العادلية والمدرسة الناصرية في دمشق؛ المدرسة الفاضلية والمدرسة الحجازية بالقاهرة

¹ . الخفاف، سمية يونس سعيد. المكتبات في العصر الإسلامي: دراسة توصيفية. العراق: جامعة الموصل (مجلة العلوم الاجتماعية والتربوية ج6 (ع4) مارس 2019.

ص.451

² . المقرئ، تقي الدين أحمد. الخطط المقرئية، لبنان: مكتبة إحياء العلوم، د.ت، ج2، ص.337.

1. "واسند منصب أمناء المكتبات المدرسية، للمرموقين في الدولة من العلماء والشخصيات. ومن الذين درسوا بهذه المدارس وارتادوا مكتباتها الغزالي، كما زارها الرحالة ابن بطوطة وذكرها.²

7. مكتبات المشافي (المستشفيات):

أسس أول مستشفى إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي حكم من سنة 86هـ إلى سنة 96هـ، وكان هذا المستشفى متخصصاً في الجذام، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها مستوى عظيمًا، حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعاً للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم. بينما أنشئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!! وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلًا من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب. ومما يذكر على سبيل المثال -لنعرف ضخامة هذه المكتبات- أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كان أرصدها تضم أكثر من مائة ألف كتاب.³

8. ميزات المكتبات في الحضارة الإسلامية:

لعل الميزة التي جاءت بها الحضارة الإسلامية في مجال المكتبات، هي تعدد أنواعها خلافا لما كان سائدا في المكتبات القديمة التي كانت عامة في مجملها، كما أن الغرب في العصور الوسطى اشتهر بمكتبات الأديرة. لقد عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية؛ فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء، وفي المدارس والكتاتيب والجوامع، وكما أنها وُجدت في عواصم الإمارات فقد وُجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة؛ مما يؤكد على تأصل حب العلم لدى أبناء هذه الحضارة. وكانت المكتبات الإسلامية متعددة الخدمات مع حسن التنظيم والترتيب، وكانت تعتمد في التزويد وتنمية مجموعاتها على طرق عدة هي "الشراء والوقف والنسخ والإهداء والاستهداء والتبادل" وكانت ترتب الكتب فوق رفوف مفتوحة مثبتة على الجدران حسب موضوعها. كما كانت تسمح بالإعارة الخارجية للقراءة أو للنسخ أو المقابلة أو التصحيح.

9. عوامل ازدهار المكتبات في الحضارة الإسلامية:

يرجع ازدهار المكتبات و تطورها إبان الحضارة الإسلامية، التي امتدت من صدر الإسلام إلى عصر الضعف والانحطاط بسقوط الخلافة العباسية والأندلس. إلى عدة عوامل نلخصها في الآتي :

- التطور الذي شمل جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والصناعية والعلمية والثقافية، وانخفاض نسبة الأمية مما يقتضي وجود مرافق وأماكن للقراءة والتعلم. وأثبت تاريخنا أن أكبر المكتبات تواجدت في أرقى الحضارات.

1. عليان، ربحي مصطفى. المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع. 1999. ص. 132.

2. عليان، ربحي مصطفى. المرجع نفسه. ص. 133.

3. السرجاني، راغب. المستشفيات في التاريخ الإسلامي متاح على الموقع <https://islamstory.com/ar/artical/> تاريخ زيارة الموقع.

12 ديسمبر 2021 على الساعة 14.00

- تطور وانتشار صناعة الورق (الكاغد) وقد أخذ العرب المسلمون فن هذه الصناعة بعد دخولهم سمرقند 712م ثم نقلوا هذه الصناعة وبعض الصناعات (الصينيين) إلى بغداد.¹
- تطور حركة التدوين والتأليف والنشر وظهرت حرفة الوراقة والنسخ وازدهرت. وأصبحت المدن الكبرى مثل بغداد مليئة بدكاكين الوراقين.
- تشجيع الحكام والخلفاء والملوك للكتابة والتصنيف. وإمداد المؤلفين بالإمكانات التي تجهل منهم منتجين ومبدعين.

10. تقييم أداء المكتبات في الحضارة الإسلامية من منظور علمي :

تعرف قوة المكتبات بنوعية الخدمات التي تقدمها للمستفيدين. وكذا مستوى التغطية للمواد المكتبة أي للمصادر أو الكتب التي تزود بها. كما أن علوم المكتبات الحديثة اهتمت بتنظيم وترتيب الأوعية الفكرية والمصادر، ووضع علماء كبار طرقا لتصنيف مثل **ديوي*** وغيره، واجتهد المختصون من أجل وضع أنظمة جديدة تخدم محتويات المكتبات لأهداف سامية هي الاستجابة لطلبات المستفيدين من قراء وباحثين.

لقد أجمع المؤرخون والرحالة العرب وغير العرب وكذا المستشرقون على أن المكتبات العربية الإسلامية إبان عصورها الذهبية، كانت غاية في التنظيم، وحسن الترتيب، الأمر الذي جعلها تقدم خدمات جليلة لروادها². وتتجلى نقاط قوة مكتبات ذلك العصر في الآتي:

- **أبنية المكتبات :** كانت في بداية نشوئها تابعة وملحقات بالمنشآت التي أقيمت فيها، كما سبق التطرق إليه كمكتبات المساجد والجوامع أو قصور الخلفاء، كما هو الشأن اليوم في المكتبات الجامعية ومثيلاتها، لكن المكتبات العامة أو الوطنية باعتبارها كبيرة بحجم أرضيتها، خصصت لها أبنية مستقلة وهذا ما حدث لبعض مكتبات الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لها أبنية مستقلة مثل مكتبة دار العلم بالقاهرة التي احتوت أربعين غرفة وواسعة تربط بينها أروقة فسحة، خصص بعضها للنسخ والترجمة أو للحلقات العلمية والمناظرات الأدبية. وتم تأثيثها تأثيثا فاخرا وفرشت أرضها بالسجاد والبسط، وعلقت الستائر السمكية على نوافذها لحمايتها بالغبار واتقاء لبرد الشتاء وحر الصيف، وكان في خدمتها العديد من خدام وفرادين ونساجين وغيرهم.³
- وهذا مما يدل على ضخامة هذه المكتبات.

1.10 التنظيم الإداري للمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية:

كان يطلق على مسؤول المكتبة أو مديرها عموما لقب **صاحب**، وهذا منذ حكم الأمويين الأول. ودأبت بعد ذلك كبرى المكتبات كدار الحكمة في بغداد وغيرها. فيقال صاحب بيت أو دار الحكمة. أي مدير أو محافظ مكتبة دار الحكمة. وهذا اللقب معروفا إداريا آنذاك ويطلق على مدير أي مؤسسة على غرار "صاحب بيت المال" و"صاحب الديوان"⁴ و"صاحب الشرطة"

¹ . صوفي. عبد اللطيف. مدخل إلى علوم المكتبات والمعلومات. المرجع السابق. ص. 23

* **ملفيل ديوي:** (1851-1931) عالم الرياضيات وأمين المكتبة أمريكي أنشأ نظام ديوي العشري لتصنيف العلوم والذي قسم المعرفة البشرية إلى عشرة أقسام، وهو أشهر تصنيف تعتمد المكتبات حتى اليوم في تصنيف الكتب.

² . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 24.

³ . حمادة، محمد ماهر. المرجع نفسه. ص. 146.

⁴ . خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع نفسه. ص. 286.

وغيرهم من المسؤولين. ثم الوكيل فيما بعد. بينما يطلق على الموظف الذي يقوم بالعمال الفنية والتقنية داخل المكتبة بـ: **الخازن** وهو أقل درجة من "صاحب" في سلم الترتيب الإداري، والتراتبية أسلوب ناجع من اجل أداء وظيفي متميز. ثم **المشرف** وهو مساعد **الخازن** وهناك وظائف أخرى مثل المناول الذي يجلب الكتب من المخازن ليسلمها للقراء، وهنا أيضا **الناسخ** الذي يعمل على نسخ الكتب من أجل تنمية رصيد المكتبة.¹

وقد وكلت إدارة المكتبات الإسلامية إلى شخصيات لها ثقلها العلمي والفكري مما يوضح أهمية ورفعة شأن هذا المنصب. كما هو الحال اليوم بالنسبة للمكتبات الكبرى عبر العالم. وكانت مرتباتهم تتفاوت من مكتبة إلى أخرى ومن درجة وظيفية إلى درجة أخرى ففي بعض الأحيان تكون المرتبات مرتفعة وأحيانا متدنية. ثم تطورت الوظيفة المكتبية وأصبحت أكثر تخصصا فأصبح المسؤول عن المكتبة في العموم يسمى **أمين المكتبة**، وهو الاسم الذي بقي مستعملا إلى يومنا هذا. ويخضع اختيار أمين المكتبة للقواعد واللوائح المكتوبة والتي تحدد صفاته ومهامه وراتبه. ووفق شروط أهمها: أن يتحلى بالأمانة واليقظة والقدرة على القيام بأعمال الخدمة المكتبية ومعرفة الترتيب والتصنيف.² لقد اعتبرت الأمانة أول مقوم ينبغي أن يكون عليه مسؤول المكتبة وبذلك كانت للأخلاق المهنية مكانة في التعامل في وظائف المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. وأشهر أمناء المكتبات الذين تناوبوا على تسيير أهم المكتبات العربية الإسلامية، سهل بن هارون الفارسي (صاحب بيت الحكمة)، الحسن بن مرار الضبي، أبوسهل بن نوبخت الذي كان مسؤولا على الترجمة.³

2.10 الأعمال الفنية التي كانت تتم داخل المكتبات: الأعمال الفنية أو التقنية، مصطلح حديث يطلق على الأعمال التي تتم داخل المكتبة. في إطار ما يسمى السلسلة الوثائقية التي تعتبر المسار التي يسلكه الكتاب منذ اقتنائه إلى أن يوضع في خدمة المستفيد. يتم إعداد الفهارس في المكتبات، توضع الكتب فوق بعضها. حسب حجم الكتاب حيث تجد الأكبر حجما ثم الأصغر فوقه فالأصغر وهو نظام تصنيف اتبعته المكتبة الوطنية الفرنسية في بداياتها ويسمى باسمها. كما أن العنوان واسم مؤلفه لم يكن يكتب على كعب الكتاب وإنما على أطراف صفحات الكتاب ومن الجهة الخارجية للرف الكتب الثمينة خصصت لها صناديق خاصة في حجم كل كتاب وكتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب على جانب الصندوق.⁴

3.10 طرق تزويد المكتبات: تعتبر عملية تزويد المكتبات وتنمية مجموعاتها، الركيزة الأولى التي يعتمد عليها العمل المكتبي الناجح، فالمكتبة الغنية بأرصدها، تقدم خدماتها بأكثر جودة. وكانت المكتبات العربية الإسلامية اهتمت بذلك واجتهدت في ذلك. وقد تبين ذلك في تجارب المكتبات الكبيرة التي تم التعرض لها خلال هذا البحث. فلقد كانت كل مكتبة طرقها وأساليبها حسب مكان تواجدها وبيئتها العامة واختلاف العصر الذي تواجدت فيه. إلا أن هناك طرق عامة مشتركة عملت بها المكتبات في مختلف أزمنة الحضارة العربية الإسلامية، وأرست تقاليد فعالة في عملية التزويد وتنمية وبناء أرصدها. مثل الشراء الذي يكون حسب الإمكانيات المتاحة للمكتبة، سحاء الحكام والخلفاء، الوقف باعتباره خصوصية إسلامية. جلب الكتب من أقطار مختلفة

⁴⁸. صوفي، المرجع نفسه. ص. 62

² خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع نفسه. ص. 286

³ خليفة، شعبان عبد العزيز. المرجع نفسه. ص. 287

⁴ عليان، رجي مصطفى. المرجع السابق. ص. 166

تبعاً لتوسعة الدولة، النسخ والتأليف الذي يقوم به العلماء والمصنفون داخل المكتبات بإمكانياتها، لتبقى مؤلفاتهم داخلها وتضاف إلى أرصدها.

4.10 موظفو المكتبات: كان العاملون في المكتبات من مختلف فئات المجتمع أي بمستويات علمية مختلفة بلغة العصر.

الإدارة لكبرى المكتبات :

أولاً المشرف الأعلى يسمى الوكيل.

ثانياً أمين المكتبة.

ثالثاً المساعد ويسمى المشرف¹

كما خصصت كبرى المكتبات العربية الإسلامية ميزانية خاصة، لتمويل وتسييرها. فالمخصصات المالية لمكتبة دار الحكمة مثلاً، تنقسم بنودها إلى الآتي:

ثمن الورق تسعون دينارا

إصلاح الكتب وترميمها اثنا عشر دينارا

ثمن الماء اثنا عشر دينارا

فرش الأغطية والصيانة العامة خمسة عشر دينار

ستائر ترميم وصيانة دينار واحد²

5.10 الخدمات التي كانت تقدم للرواد: خدمات المكتبات دار العلم بالقاهرة كانت تقدم للقراء كل ما يحتاجونه بالمجان من

أوراق وأقلام والمحابر وكان خطاطون ينسخون الكتب ويكثرون منها . الإعارة الخارجية تتم . اختلفت شروطها . أحيانا مجاناً. أحيانا مقابل رهن

يقول ياقوت الحموي: إن الإعارة في مدينة مرو كانت مباحة وبأعداد كبيرة ولهذا كان مسرورا بالإقامة بهذه المدينة.³ عليان 167

افتراءات حول سلوك المسلمين تجاه الكتب والمكتبات:

ورغم المساهمات التي اجتهد فيها العرب والمسلمون في تطوير الحركة الثقافية والعلمية من خلال التأليف والتصنيف، وإنشاء المكتبات بأنواعها وتشجيع العاملين بها من خلال التحفيز وكذا المكانة التي حظي بها المكتبيون والقيّمون على هذه المؤسسات. كما أثرى العلماء المكتبة العالمية بعشرات الآلاف من التأليف والموسوعات في مختلف المجالات العلمية والأدبية. غير أن هناك نظرة طالما رسخت في أذهان الغربيين خاصة، أن العرب المسلمون قاموا بإتلاف وحرق الكتب وتدمير المكتبات خاصة إبان الفتوحات الإسلامية.

¹ عليان، ربحي مصطفى. المرجع نفسه، ص. 164.

² عليان، ربحي مصطفى. المرجع نفسه، ص. 167.

³ عليان، ربحي مصطفى. المرجع نفسه، ص. 167.

1.11 حرق مكتبة الإسكندرية:

تذكر كتب التاريخ أن مكتبة الإسكندرية بمصر أحرقت أيام الفتح الإسلامي لمصر، عام 642م حيث ذكر عبد اللطيف البغدادي* في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر». ، أنه خلال الفتح الإسلامي جاء يوحنا أحد علماء الإسكندرية إلى الوالي عمرو ابن العاص وطلب منه الحصول على كتب الحكمة من خزائن المكتبة. فاستفسر عمرو عن ماتحويه هذه الكتب؟ فاجابه، فقال له عمرو ابن العاص أنه يجب استئذان الخليفة عمر بن الخطاب. فأرسل إليه الأمر فأجابه: بأنه إذا كانت كتب مكتبة الإسكندرية متماشية مع تعاليم الدين الإسلامي فقد أغنى الله المسلمين بالقرآن، وإذا كانت تخالفه فلا حاجة لنا إليها. فقام عمرو ابن العاص بإتلافها وحرقها حيث استعملت كوقود للحمامات في المدينة.¹

واعتبرت هذه الرواية فرصة اغتتمها المستشرقون الغربيون المعادون للحضارة الإسلامية، والغلاة منهم على وجه التحديد لأجل الطعن في الشخصيات الكبيرة المؤثرة في التاريخ الإسلامي في حجم وقامة الخليفة عمر ابن الخطاب. والتهامهم بالتعصب لما يخالف عقيدتهم وإيمانهم.

2.11 حقيقة حرق مكتبة الإسكندرية بين الواقع والرواية: لقد أثبتت مجريات التاريخ بالأدلة والقرائن، أن الحضارة الإسلامية أولت أهمية كبيرة للكتب خزائنها وكذا القيميين عليها. كما عرف عن الإسلام والمسلمين سماعتهم واحترامهم للأديان والمعتقدات. كما دأب الخلفاء وأئمة المسلمين عبر العصور على الاستفادة من انجازات الحضارات المختلفة إيماناً منهم بأنه لا شيء يبني من العدم.

لذا فان رواية حرق كتب مكتبة الإسكندرية التي جاءت في رواية البغدادي، تحتاج إلى تدبر وتحليل. ليس لتكذيبها بصفة قطعية لأن ذلك يحتاج إلى دراسات جدية وعلمية وأثرية، غير أن سلوك المسلمين في التعامل مع الكتب وتقديرها كفيلا بتفنيدها. لقد أثبتت المراحل التاريخية، التي سادها الحكم الإسلامي منذ الخلافة الراشدة إلى سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، اهتمام الخلفاء والعلماء وكل أفراد المجتمع بالقراءة والعلم واحترام وتقدير الكتب وأماكن تواجدها، وبالتالي لا ينزلون إلى هذا المستوى الذي يعتبر غريبا عن المسلمين والعرب الذين كانوا في جاهليتهم قد أقاموا العديد من الحروب، لكن لم يسجل التاريخ أنهم قاموا بمثل هذه الأعمال خلافا للشعوب الأخرى التي اشتهرت بوحشيتها وتدميرها للكتب والمكتبات، مثل الرومان في حروبهم من تدمير لمكتبة الإسكندرية، المغول في مكتبة دار الحكمة، محاكم التفتيش في اسبانيا، وحديثا ما فعله الاستعمار في بعض البلدان مثل حرق المكتبة الوطنية في الجزائر.

* عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد المكنى بـ موفق الدين و أبو محمد ويلقب بـ ابن اللباد ولد في بغداد في العراق سنة 557 هـ الموافق 1162 م في واشتهر باسم عبد اللطيف البغدادي. واشتهر بكونه رحالة متمرس وقد ابرز ما شهدته في كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر» المتضمن لرواية حرق كتب مكتبة الإسكندرية.

¹ . عليان، مصطفى رجي. مكتبة الإسكندرية القديمة: دراسة تاريخية. المجلة الثقافية. ع17 (1988)، ص 45،54.

تفوق مكتبات الحضارة العربية الإسلامية عن نظيرتها الأوروبية في العصور الوسطى :

فترة القرون الوسطى اشتهرت بأنها زمن الانحطاط والتخلف والجهل والأمية، وغيرها من الآفات حتى أصبحت مضرًا للأمثال، فيقال: كأننا في العصور الوسطى، عند وصف التخلف وعدم التطور أو يقال هذا البلد متخلفًا من القرون الوسطى. غير أن هذا العصر وعكس ما أشيع عنه، اعتبر العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، فإذا كانت شوارع أوروبا تغرق في الوحل وفي الظلام، فإن شوارع بغداد عاصمة العباسيين نظيفة وبها أعمدة الإنارة. وهذا ما أورده العديد من المؤرخين والرحالة وحتى المستشرقين ولعل الكتاب الشهير المعنون "شمس العرب تسطع على الغرب" للمستشرق الألمانية زيغريد هونكه، أشهر من تطرق لذلك بالتفصيل للوضعية التي كانت عليها المكتبات في أوروبا إبان تلك الفترة. حيث كانت من الضعف والمحدودية في الأداء باعتبارها تابعة للسلطة الدينية القاسية. كما عانت من قلة وضعف المشرفين عليها. ففي الوقت الذي برز العديد من أمناء المكتبات العربية الإسلامية، كما تم التطرق إليه في مكتبات دار الحكمة ودار العلم وغيرهما، عجزت أوروبا في إيجاد كفاءات تضاهيهم. وفي ذلك يقول البابا سلفستر الثاني بابا روما 999م: "انه لمن المعلوم تماما أنه ليس هناك أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله للعمل بوابا لتلك المكتبة (يقصد مكتبة دار العلم بالقاهرة) وأنى لنا نعلم الناس، ونحن في حاجة لمن يعلمنا. إن فاقد الشيء لا يعطيه." ¹ بعد استعراضنا لأنواع المكتبات في الحضارة الإسلامية، ومدى تنوعها وتعدد أماكنها. وغناها بالأرصدة والمصنفات. إضافة للخدمات التي تقدمها لروادها، كانت في نفس الفترة المكتبات في أوروبا لها خصوصياتها التي موزها في الآتي، ظهرت في أوروبا نوعيات مختلفة من المكتبات، كانت في الأغلب مكتبات تابعة لمؤسسات دينية أهمها:

- مكتبات الأديرة.

- مكتبات المجالس الكنسية.

- مكتبات الباباوات.

- مكتبات الحكام.²

مما يدل على محدودية هذه المرافق التي كانت تعتبر ملحقة بالمؤسسات السيادية والتي كانت في الأساس السلطة الدينية. وكانت مكتبات تلك الفترة من العصور الوسطى المتقدمة مؤسسات متواضعة من حيث مقتنياتها من المخطوطات توجه خدماتها إلى الرهبان بالدرجة الأولى، وهذا هو السبب في أنها كانت تنشأ دائما في داخل الأديرة أو في كنف المؤسسات الدينية المختلفة.³

يقول الفريد هيسستيل: " وكان مما يميز مكتبة العصور الوسطى عن مكتبات العصر القديم ومكتبات العصر الحديث، هو ضآلة الموجود بها من الكتب، فلم تكن فهارسها لتحتوي على أكثر من عدة مئات قليلة من المداخل.⁴

ربما احتوى مجلد واحد على عدة كتب مختلفة. وكانت الموضوعات التي تمثلها هذه الكتب عبارة عن الكتابات المسيحية والمخلفات القليلة من العصور القديمة.

¹ . هونكه، زيغريد. المرجع السابق. ص. 353

² . هونكه، زيغريد. المرجع نفسه. ص. 353.

³ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 42.

⁴ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 42. ص. 43.

- لم يكن هناك تنظيم للمقتنيات لرصيد الكتب والمخطوطات، بطريقة تجعلها متاحة للمستفيدين، كما كانت طرق التنظيم تختلف من مكتبة إلى أخرى. فكل مكتبة من المكتبات كانت لها طريقتها الخاصة في ترتيب الكتب، وفي تحديد مواضعها على الرفوف، وكذلك كانت لكل مكتبة إجراءاتها الخاصة وكذلك طريقتها في إعداد سجلاتها. بينما اعتمدت جل المكتبات العربية الإسلامية التصنيف الموضوعي للكتب، فتنظيم الكتب لديها يتم بمواصفة ومعارية وهي لغة الجودة حديثاً. خدمات المكتبات قاصرة على فئة صغيرة من القراء من رجال الدين خاصة، يعرفون ما يقرأون وبالتالي انكمش دور أمين المكتبة الذي دوره كبير في التوجيه والإرشاد. كما كان مسؤولو المكتبات هم الرهبان ورجال الدين.¹

11. ماذا قدمت مكتبات الحضارة العربية الإسلامية للعالم الحديث ؟

قدمت الحضارة الإسلامية للعالم خدمات جليلة في شتى المجالات. العلمية والأدبية والفنية وغيرها. وتحفل كتب المؤرخين والعلماء والفلاسفة والمفكرين، العرب أو المستشرقين بتعداد منجزات هذه الحضارة العظيمة، التي أبهرت العالم في وقتها ولا زالت إلى يومنا هذا. فعكس الحضارات الأخرى التي بنيت على أسس وأفكار مختلفة، فمنها من كان حب التفوق والسيطرة دافعا لها، وأخرى كانت القومية والعرقية هدفها ومبتغاها وغير ذلك من المقومات التي تبني عليها أي حضارة. غير أن الحضارة العربية الإسلامية كان عمادها الأول هو العلم والتعلم والقراءة للناس كافة، فمعرفة دين الله لا يكون إلى بمعرفة قيمة الإنسان أولاً وأسباب الحياة وعصبها ألا وهو العلم. ففي مجال المكتبات مثلاً جعلت هذه المرافق أماكن لنشر العلم والمعرفة لجميع الناس دون استثناء، واجتهدت عليه القوم في كل عصر من هذه الحضارة الراقية، على تشجيع بناء وتجهيزها وتزويدها بالكتب. فكان الخلفاء والعلماء والأعيان يتسابقون في بناء وإنشاء المكتبات وينفقون بسخاء في ذلك. لتصبح بلاد المسلمين كلها ساحة للعلم وتعليم المجتمع وثقافته. يقول المؤرخ وول ديورنت " لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين - ما بلغه في بلاد الإسلام. فعدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند، لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من أعمدة".² طورت المكتبات العربية الإسلامية خدماتها وأعمالها الفنية، وأضافت خدمات جليلة لمستفيديها وروادها. كالاطلاع دون قيود والإعارة، خلافاً لما كان يقدم من مكتبات سبقتها أو عاصرتها في الغرب المسيحي، التي مجرد أماكن ومخازن لعرض الكتب، والتي كانت تربط بالسلاسل و ينظر إليها من بعيد. لقد جعلت المكتبات الإسلامية الكبرى على غرار دار الحكمة في بغداد ومكتبة قرطبة في الأندلس، الكتاب في متناول القراء والمستفيدين بل وزودت وشجعت على ذلك وهي أسمى خدمة تقدمها المكتبات الحديثة التي تبني إستراتيجيتها على طلبات المستفيدين. كما جعلت المكتبات الإسلامية في زمن ازدهارها العنصر البشري أساس نجاحها. فأغدقت الأموال على موظفيها وخصصت أموالها وإمكاناتها للتشجيع على القراءة والتعلم. في الدراسات الحديثة التي تقيم أداء المكتبات يجمع المختصون على وجوب ذهاب المكتبة إلى القارئ وعرض خدماتها واستمالته. وهو ما كانت عليه أيام ازدهارها في الحضارة الإسلامية أين بنيت المكتبات في كل المدن والقرى فكانت مكتبات المدن ومكتبات المساجد وحتى المشافي كما سبق التطرق إليه، فقد أرست للعالم قواعد إنشاء المكتبات بناء على أماكن تواجد المستفيدين والقراء واقتحام عالمهم. كما طورت هذه المكتبات خلال تألقها بعض الخدمات التي تعتبر حتى عصرنا هذا من مقومات المكتبات الناجحة، كالإعارة الداخلية

¹ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع نفسه. ص. 43.

² ديورانت، وول. قصة الحضارة. تـ أحمد بدران. القاهرة: لجنة الترجمة والنشر، 1950، م 13. ص. 171.

منها والخارجية، وجعلت لها قواعد وأسس نظمت العملية وجعلت من الكتاب موضوع الإعارة مصدرا يتشارك في جميع القراء والمستفيدين دون استثناء من احد. فالخدمة المكتبية تتاح للجميع دون استثناء. كما كان لهذه المكتبات الفضل في تكوين علمي و سلوكي لرواده مبني على المحافظة على الكتاب وإرجاعه بعد الانتهاء من استعماله. وفي الحقيقة لدى العرب والمسلمين تقاليد في التعامل مع الكتب فهاهو الجاحظ يبرز ذلك في أبيات:¹

أيها المستعير مني كتابا إرض لي فيه ما لنفسك ترضى
لا ترى ما أعرتك نفلا وترى ما استعرتك فرضا

لقد أدرك القيمون على المكتبات العربية الإسلامية، أن تقويم سلوك المستفيد في التعامل مع الخدمة المكتبية واحترامها، يساهم استدامة وظيفة المكتبة. وهذا ما سعت إليه المكتبات الحديثة وأهل الاختصاص في المراهنة على ما يسمى اليوم تكوين المستفيدين أو المستعملين. أي الاستثمار في العنصر البشري وتكوينه لضمان جودة الأداء في المكتبات.

خاتمة

أدت مكتبات الحضارة الإسلامية دورا مهما في تطوير الوظائف والمهام المتصلة بها، كما ساهمت إيجابا خلال عصر الازدهار والرقى، والذي امتد أكثر من ستة قرون. إبان القرون الوسطى التي ارتبط اسمها بالتخلف، حسب نظرة غربية مسيحية، وهي حقيقة إذ عرف عن ذلك عصر أنه عصر التخلف والانحطاط لديهم، لكن في المقابل، أي في الجهة الشرقية عرف العالم حضارة لا يمكن أن تنكر وهي الحضارة الإسلامية التي امتزج فيه التطور المادي بالوازع الروحي والبعد الإنساني وهي ميزات لم تأتي بها أي حضارة سابقا أو فيما بعد.

لم تعد المكتبات في الحضارة الإسلامية مجرد أماكن تصلح لحزن وحفظ الكتب بوسائطها المختلفة، بل حاولت الإحاطة بكل ما من شأنه تحقيق النجاح والأهداف التي أوجدت لأجلها المكتبة، وتعددت مزاياها كما سبق التطرق إليه في أسطر هذا المقال. وتتلخص في الآتي:

- ✓ عملت مكتبات الحضارة العربية الإسلامية على تحقيق بعض الأهداف التي كانت سابقة لعصرها، منها استهداف أو جلب أكبر عدد ممكن من القراء والمستفيدين وطلاب العلم دون تمييز أو شرط، خلافا لما كان في المكتبات المسيحية في نفس الفترة التي كان لم يكن يرتادها سوى الرهبان ورجال الدين.
- ✓ ساهمت مكتبات الحضارة الإسلامية في التعليم والتثقيف، فمكتبات المساجد والجوامع مثلا تعتبر مدارس لطلاب العلم. إضافة إلى تقديم مصادر المعلومات، كانت تدرس الرواد من طلبة وغيرهم.
- ✓ تميزت هذه المكتبات بالتنوع، وظهور أنواعا جديدة، زيادة على المكتبات الأكاديمية والعامة، هناك مكتبات المساجد والجوامع والمدارس.

¹ . صوفي، عبد اللطيف. المرجع السابق. ص. 62.

- ✓ أوجد تنوع المكتبات فئات عديدة من الرواد والمستفيدين. فهناك القراء والرواد العاديين، وهناك طلبة العلم، كما كان العلماء والأدباء وغيرهم لهم فضاءاتهم، كما هو الحال اليوم.
- ✓ تطورت الخدمات وخاصة الإعارة الخارجية كما سبق التطرق إليها.
- ✓ بفضل هذه المكتبات ازدهرت حركة التدوين والنسخ والتأليف، وتطورت صناعة الكتاب وهذا ما يضاهاى حديثا تطور النشر.

لقد كان للمكتبات العربية الإسلامية في عصرها الذهبي، قيمة ومكانة جعلتها مرجعا مهما، استلهمت منه مكتبات عصر النهضة التي جاءت بعدها في أوروبا خاصة. كما حدث في جميع المجالات بعد انكماش الحضارة العربية الإسلامية.

كما يعتبر هذا المقال، محاولة في المساهمة لإحياء هذه المؤسسات العظيمة من خلال التعريف بها ودراسة خصوصياتها ومميزاتها بصفة تفصيلية علمية، من أجل الاستفادة من خبرات هذا الكنز التراثي المختفي. الذي لا تعرف آثاره، فأين هي مكتبة دار الحكمة ببغداد؟ وأين تواجدت دار العلم بالقاهرة؟ أين هي مكتبات شمال إفريقيا؟ ماهي مواقع مكتبات عصر الحضارة الإسلامية بالجزائر؟.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. اسماعيل ، أحمد علي. تاريخ بلاد الشام : دراسة اجتماعية اقتصادية فكرية عسكرية. دمشق: مركز الشام للخدمات الطباعة. 1998.
2. الضبيان، سعد عبد الله. إطلالة تاريخية على المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية. الرياض: مكتبة الملك فهد، 1994.
3. المقرئ، تقي الدين أحمد. الخطط المقرئية، لبنان: مكتبة إحياء العلوم، د.ت، ج2، ص.337
4. المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ. القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ج 1 ص25
5. حمادة، محمد ماهر. المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرهما. بيروت مؤسسة الرسالة: 1996
6. خليفة، شعبان عبد العزيز. الكتب والمكتبات في العصور الوسطى: الشرق المسلم- الشرق الأقصى. ط. 2. القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2001
7. ديورانت، وول. قصة الحضارة . ت أحمد بدران. القاهرة: لجنة الترجمة والنشر، 1950، م 13
8. صبيح، إبراهيم. المكتبات العربية والثقافة المكتبية. إبراهيم صبيح، أحمد حمادة، سعود جابر. عمان: دار الجامعة للنشر والتوزيع. 1997
9. صوفي، عبد اللطيف. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات. دمشق: دار طلاس للطباعة والترجمة، 1987.
10. صوفي، عبد اللطيف. المدخل إلى علوم المكتبات والمعلومات. جامعة قسنطينة : منشورات الجامعة. 2001.
11. عليان، ربحي مصطفى. المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع. 1999
12. قزنجي، فؤاد. المكتبات والصناعة المكتبية في العراق. بغداد: مطبعة الجمهورية، 1972.

13. مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن ابن خلدون ولي الدين، تحقيق عبد الله محمد الدرويش. ج.1. دار يعرب. ص. 417.
14. مكّي، الطاهر أحمد، دراسة في مصادر الآداب. ط2، القاهرة: دار المعارف، 1963.
15. منز، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. ت: عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . 1957 .
16. نصار، حسين . نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1966.
17. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. احمد بن محمد التلمساني المقرئ. تحقيق حسان عباس. بيروت: دار صادر . 1968.
18. هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب. ط. 5، ترجمة فاروق بيوض ، كمال دسوقي. بيروت : دار الآفاق الجديدة، 1981.

الدوريات

19. الخفاف ، سمية يونس سعيد. المكتبات في العصر الإسلامي: دراسة توصيفية. العراق: جامعة الموصل (مجلة العلوم الاجتماعية والتربوية ج 6 (ع4) مارس 2019
 20. عليان، مصطفى ربحي. مكتبة الإسكندرية القديمة: دراسة تاريخية. المجلة الثقافية. ع17 (1988)، ص 45، 54
- المواقع الالكترونية
21. السرجاني، راغب. المستشفيات في التاريخ الإسلامي متاح في: <https://islamstory.com/ar/artical/> تاريخ زيارة الموقع. 12 ديسمبر 2021 على الساعة 14.00